# ابن تيمية التاريخي والمستعاد

"ابن تيمية التاريخي والمستعاد .. مقاربة تاريخية تحليلية في موقف ابن تيمية من المختلِف الديني"، كتاب صدر عن المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، من تأليف الباحث رائد السمهوري، وهو كتاب تركّز فصوله الخمسة على مناقشة فكرة ذات جدّة عن ابن تيمية وهي مواقفه من "المختلف الديني" كما يجب أن تُفهم في عصره الذي عاش فيه لا في عصرنا الحالي.

## نبذة عن المؤلف رائد السمهوري

رائد السمهوري باحث في "المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات"، وخبير مصطلحات علم الكلام في معجم الدوحة التاريخي، وعضو هيئة تحرير دورية تبيّن للدراسات الفلسفية والنظريات النقدية، حاصل على الدكتوراه في أصول الدين ومقارنة الأديان.

صدرت له كتب عدة، أبرزها: نقد الفكر التكفيري في ضوء منهجالإمام ابن تيمية (2008)؛ نقد الخطاب السلفي: ابن تيمية نموذجًا (2010)؛ الأعمال الكاملة للشيخ صالحبنعبد الرحمن الحصين (جمع وإعداد وتحقيق، 2014)؛ الوهابية والسلفية: الأفكار والآثار (إشراف وتحرير، 2015)؛ السلف المتخيل: مقاربة تاريخية تحليلية في سلف المحنة: أحمد بن حنبل وأحمد بن حنبل المتخيل .(2019)

## افتراق "الأحمدين"

كتاب "ابن تيمية التاريخي والمستعاد .." يقع في 568 صفحة، شاملةً ببليوغرافيا وفهرسًا عامًّا. ولمؤلفه رائد السمهوري تجربة مماثلة في كتاب يخص الإمام أحمد بن حنبل بعنوان السلف المتخيل: مقاربة تاريخية تحليلية في سلف المحنة – أحمد بن حنبل وأحمد بن حنبل المتخيل سماه فيه هو وأتباعه "سلف المحنة"، وهي محنة "خلق القرآن" التي ثبت لها الإمام أحمد ثبات الجبال برغم العذاب، حتى أورد الذهبي في تذكرة الحفاظ نقلًا عن علي بن المديني قوله: "إن الله أيَّدَ هذا الدين بأبي بكر الصديق يوم الردة وبأحمد بن حنبل يوم المحنة".

واليوم يطل السمهوري على قرائه بكتاب جديد عن "ابن تيمية التاريخي والمستعاد" أو بالأحرى بـ "أحمدَ حنبليٍّ" آخر ولكنْ من المتأخرين، هو الشيخ الفيلسوف، المتكلم، الفقيه، "شيخ الإسلام"، والمصلح الديني والاجتماعي أحمد بن عبد الحليم بن تيمية (ت. 728ه)، في كتاب ابن تيمية التاريخي والمستعاد: مقاربة تاريخية تحليلية في موقف ابن تيمية من المختلِف

وأحمد الثاني في كتاب "ابن تيمية التاريخي والمستعاد" هو كالأول شهرةً، إن لم يكن فاقه فيها، فقد تجاوزت مؤلفاتُه المئةَ، بسط فيها القولَ، وأصَّلَ فأجاد، ومدّ حبال الردّ والجدل في أحد أكثر العصور تعقيدًا، سياسيًّا واجتماعيًّا وعلميًّا، فيه شهد العالم الإسلامي غزوات الفرنجة والصليبيين والتتار والمغول، وانتشر المنطق الصوري اليوناني والفلسفة المشائية والإشراقية وعلمًا الكلام المعتزلي والأشعري، اللذان تغلغلا في بنية الثقافة العربية والإسلامية والعلوم اللغوية والشرعية.

كما اخترقت الفلسفة السينويةُ الخطاب العقائدي الأشعري المتأخر، واستقرّت المذاهب الفقهية الأربعة وتجذّرت بعمق حتى لم يعد متصوَّرًا تجاوزُها ولو في مسألة واحدة... ما حتَّمَ تجاوزَ ابن تيمية صراع إمام مذهبه ابن حنبل مع جهة واحدة هي "الجهمية" التي تسللت إلى الحكم العباسي وأقنعته بفرض عقيدة خلق القرآن على المسلمين، إلى النزاع مع كل من الفلاسفة والمتكلمين والفقهاء والصوفية والنصارى... وغيرهم.

وحتى من الحنابلة أنفسهم لم يَسْلَموا من نقده مع كونه منهم، وتركّز جهدُه بأكمله على تحديد "أهل السنّة الحقيقية، الكاملة غير المشوبة ببدعة، وبيان منهج السلف الصالح قبل طروء علم الكلام وما نتج عنه من أهواء وعقائد فاسدة، إظهارًا للدين القويم، ودفاعًا عنه تجاه شبهات الخصوم"، في وقتٍ كانت الدويلات حول الدولة الإسلامية مذهبيةً، كالدولة الفاطمية شيعية سبعية، والبويهية شيعية زيدية، والسلجوقية سنية أشعرية، والتتارية الإيلخانية اثني عشرية ... وهكذا.

فلا بد من تنقية عقيدة أهل السنّة و"كيانهم السياسي" لئلا تفرّخ الباطنية فيه، وعلى هذا الأساس صنّف ابن تيمية مؤلفاته، ولأجل هذا سمى السمهوري ابن تيمية وأتباعه "سلف المفاصلة". وجاء في كتاب "ابن تيمية التاريخي والمستعاد" إن ابن تيمية أوسع علماء المذاهب جدالًا وردًّا ونقدًا ونقضًا على الإطلاق، تشهد على هذا جميع كتبه، بل ربما يصح الادعاء أنه أفرغ حياته كلها لهذا الهدف، إلى درجة أننا نستطيع القول بوثوقية إنه كان حالة لا سلف ولا خلف لها في هذا.

## ابن تيمية التاريخي والمستعاد .. مقاربةُ شخصية

يجيب كتاب "ابن تيمية التاريخي والمستعاد" ذو الفصول الخمسة ابن تيمية التاريخي والمُستعاد عن أسئلة ملحّة وأساسية، مثل: من هو ابن تيمية؟ ما سياق عصره التاريخي والاجتماعي والسياسي؟ كيف استطاع موضعة نفسه في شبكة الصراعات السلطوية الداخلية والخارجية؟ كما يجيب كتاب "ابن تيمية التاريخي والمستعاد" على أسئلة مثل: كيف استوعب مفهومَ "السلف" وعرّفه ووظّفه؟ كيف أصَّلَ قواعد التعامل مع أبرز الطوائف الدينية في زمنه تنظيرًا، وكيف زاول ذلك تطبيقًا؟ وأي أسلوب انتهج؟ كيف تعامل مع المختلفين من المسلمين ومع غير المسلمين؟ هل في الإمكان إعادة إنتاج ابن تيمية وتمثّلُه وتخيُّلُه في زمننا؟

الإمام ابن تيمية

أما دراسة كتاب "ابن تيمية التاريخي والمستعاد"، فإنها تمخر عباب الدين وأصوله، والشريعة وأحكامها، والقراءة التاريخية لزمان ابن تيمية بوصفها عدسةً منهجية لفهم الأحداث ومواقف الرجل وأقواله الناتجة منها فهمًا أقرب إلى الصواب، فمن يتخذ زماننا عدسةً لـ "تخيّل" ابن تيمية وأتباعه وخصومه فإنه يختزل "الشيخ الكبير".

وبخاصة حين ينزع فتاواه وتصريحاته من سياقاتها التاريخية وينزّلها على زمانه كما هي، فتخرج مشوّهة غير ناضجة ولا مكتملة، كأن يأخذ فتاوى ابن تيمية في النصيرية ويُسقطها على نصيرية اليوم وهم غير نصيرية الأمس، وسبب فتواه فيهم مختلف عن سياق حالهم اليوم، وكأن يأخذ بعضُهم فتواه ضد التتار فيُسقطها على بعض الأنظمة السياسية اليوم من منطلق مذهبي، كعبد السلام فرج في الفريضة الغائبة، من دون حتى اطلاع كافٍ على السبب الرئيس لفتوى ابن تيمية تلك في التتار، وهو غزوهم دمشق مرات، وليس مذهبهم، الذي ذُكر لديه بالعرَض لا بالذات؟

فهل هناك فرقٌ في الجنس أو النوع بين المماليك والتتار؟ هل انفرد التتار وحدهم بتطبيق الياسق أم كان المماليك أيضًا يطبّقونها؟ ولماذا لم يعامل ابن تيمية النصارى معاملة واحدة، بل تفاوتت مواقفه تجاههم بين الشدة تارةً واللين أخرى؟ كل هذه الأسئلة التاريخية شكلت صُلبَ هذه الدراسة.

## العنف والتكفير

ويرى السمهوري في كتابه "ابن تيمية التاريخي والمستعاد" أن أكثر ما يُستحضر فيه ابن تيمية راهنًا مسألةُ العنف والتكفير وغيرهما، ولهذا جُعلَتْ مناقشتُها هي الأساس في قسم مهم من هذا كتاب "ابن تيمية التاريخي والمستعاد"، وكذا لأن طرح مسألة "المختلِف دينيًّا" وكيفية التعامل معه في عالمنا العربي المتنوع طائفيًّا اليوم بات أمرًا على درجة عالية من الإلحاح، بعد علوّ صوت الطائفية والمذهبية والعقدية في البلدان العربية، بين سنّي وشيعي وإسماعيلي ودرزي وزيدي وإباضي، ومسلم ومسيحي، وأشعري وسلفي، فضلًا عن تعامل المسلم مع غير المسلمين، من اليهود واليزيديين وطوائف أخرى موجودة في المنطقة منذ مئات السنين، وكان لبعضها أحيانًا تأثير في التاريخ الإسلامي، وساهمت في التراثين الكلامي والفقهي.

رائد السمهوري وكتابه ابن تيمية التاريخي والمستعاد

اسم "شيخ الإسلام" ابن تيمية الحرّاني بات اليوم ملاذًا للحركات الإسلامية السنّية عمومًا، والجهادية منها على وجه الخصوص، إضافة إلى استدلال كثير من الفقهاء والعلماء التقليديين بأقواله في فتاواهم بعد ما عُرف بـ "الصحوة الإسلامية"، وحرب أفغانستان وإفرازاتها المدوية، ثم أحداث العراق، والصومال، وسورية، وليبيا، ومصر، والسعودية ... وغيرها.

ومعظم تلك التيارات ترجع إلى تفسير فكر ابن تيمية بطريقتها الخاصة، وتختلف في هذا التفسير إلى درجة التكفير المتبادل والاقتتال، كما جرى بين جبهة "النصرة" وتنظيم "داعش" في سورية، والأمثلة غير ذلك كثيرة، وما ذلك إلا لأن من فتاوى ابن تيمية ما يوحي بالتناقض، فنجده تارة يصف بعض الشيعة بأنهم "أكفر من اليهود والنصارى"، كما في منهاج السنة (ج 3، ص 374): "وأما عصمة الأئمة فلم يقل بها – إلا كما قال – الإمامية والإسماعيلية.

ناهيك بقولٍ لم يوافقهم عليه إلا الملاحدة المنافقون، الذين شيوخهم الكبار أكفر من اليهود والنصارى [والمشركين]، وهذا دأب الرافضة دائمًا"، وهو نص بتكفير "شيوخهم الكبار" دون عامّتهم، كما أن لابن تيمية كلامًا مناقضًا في موضع آخر (الفتاوى الكبرى، ص 516) يقول فيه: "من كان مؤمنًا بما جاء به محمد eفهو خير مِن كل مَن كفر به وإن كان في المؤمن [...] نوعٌ من البدعة، سواء كانت بدعة الخوارج والشيعة والمرجئة والقدرية [...] والمبتدع إذا كان يحسب أنه موافق للرسول [...] لم يكن كافرًا به، ولو قُدر أنه يكفر فليس كفره مثل كفر من كذّب الرسول".

فمن أراد تكفير عموم الشيعة "انتقى" مِن قولَيه الأولَ وتغاضى عن الثاني، ومن أراد تبرئة ابن تيمية من تكفير أحد من أهل القبلة "انتقى" هذا القول له وتغاضى عن تكفيره الفارابي وعبد الحق بن سبعين والتلمساني، ومن أراد وصمه بالتكفير العام تجاهل قوله في المنهاج (ج 2، ص 452): "الإمامية الاثنا عشرية [...] مع [فرط] جهلهم وضلالهم فيهم خَلْقٌ مسلمون ظاهرًا وباطنًا". وحتى أتباع ابن تيمية من السلفيين أنفسهم "انتقَى" بعضهم من كلامه ما يبدّعون به ويفسّقون كل من ينتقد وليّ الأمر، بينما "انتقى" الجهاديون منهم من كلامه ما يفيد وجوب الخروج بالسلاح على الحكّام الذين لا يطبّقون الشريعة.

## الحاجة إلى دراسة الرجل على قدر مكانته

تفتقر المكتبة العربية إلى دراسات غير تقليدية وغير متحيِّزة وانتقائية لفكر العالم الكبير ابن تيمية، بعيدًا عن الأطر المذهبية والطائفية وردود الطوائف عقديًّا وثقافيًّا، كما تتسم بنظرة جديدة "تستلهم" المنهج التاريخي المناسب لصراعات عصره السياسية والاجتماعية؛ فمؤلفات ابن تيمية كانت مناسباتية وسياقية وذات دوافع مرتبطة بأحداث، بعبارة أخرى: تحتاج المكتبة العربية إلى نظرة تحرر ابن تيمية من عصرنا وتضعه في عصره وسياقه، للوصول إلى مقاربةٍ أدقّ لفكرة يجري فيها تجاوز ما ينبغي تجاوزه مما لا يصلح لزماننا من آرائه، فلكل زمانٍ مشكلاته.

وقد تأرجح كتاب ابن تيمية التاريخي والمُستعاد منهجيًّا بين طريقتين: الأولى تحقيب حياة ابن تيمية وحشد الآراء بما يوافق حوادث تلك الحقب، وفيها عقبات؛ إذ الأقل فقط من مؤلفاته معروف التاريخ، ولا انقطاعات واضحة في مسيرته العلمية وآرائه الفلسفية والكلامية، لذا قام كتاب "ابن تيمية التاريخي والمستعاد" بتخصيص فصل لتأريخ حياة ابن تيمية يرصد تشابك علاقاته السياسية والاجتماعية، ويضيء على ظروف سجنه مرات متعددة، في أوقات كان لابن تيمية فيها أنصار من الأمراء وذوي السلطة هم في صراع مع أمراء آخرين يناصرهم علماء أيضًا، والثانية تأريخ طوائف خاض معها سجالات غزيرة، لأجل إفهام القارئ الخطوط العريضة لأسباب اتخاذ ابن تيمية مواقفه منها.

وقد جُمعت معلومات كتاب "ابن تيمية التاريخي والمستعاد" "المعلومات التاريخية" من عصر المماليك وما قبله بقليل، وصراعهم مع "الصليبيين" والإسماعيلية الباطنية، ثم مع التتار الاثني عشرية في دولتهم الإيلخانية، كما تضمّنت كلامًا عن مرحلة "نهوض" أهل السنّة منذ أبي حامد الغزالي، عبر المدارس السنّية التي كانت أشبه بمحاضن أيديولوجية ذات هدف أساس هو مواجهة الباطنية والصليبيين.

كما عادت الدراسة إلى ما كتبه ابن تيمية ومعاصروه لجمع أقواله في المخالفين، من مسلمين وغير مسلمين، وربطها بأحداث زمانها، إذ لا يمكن فهم آرائه في التتار مثلًا – وكانوا شيعةً حديثي عهد بإسلام – من دون فهم الصراع والحروب في ذلك الوقت بين الدولة الإيلخانية التترية الشيعية ودولة المماليك الأشعرية السنّية، أو فهم موقفه من "النصيرية" من دون الاطلاع على تعاونهم مع التتار والصليبيين ضد المماليك.

## "فجوة" في دراسات منهج ابن تيمية

ولِفِقْه منهج ابن تيمية، جمع كتاب "ابن تيمية التاريخي والمستعاد" القولَ إلى شبيهه، والرأيَ إلى نظيره، وقارن ذلك بمواقف "شيخ الإسلام" العملية، وسجَّلَ أيَّ تناقض واضح ونبّه إليه على الطريقة التقليدية الاستقرائية، وبرغم ذلك اعترضته "فجوة" علمية تمثّلت في عدم إيجاد دراسة في المكتبة العربية تولّت هذه المهمة تحديدًا، في خضمّ دراسات يصعب إحصاؤها عنه تناولت مواقفه من "المختلف الديني عن أهل السنّة"، القريب منه كالأشعرية والمعتزلة والصوفية والشيعة وغيرهم، والبعيد كاليهود والنصارى والفلاسفة وغيرهم.

إذ لم تتناول أي دراسة بالتفصيل رأيه في مقوّمات "المختلف"، ودرجات اختلافه، وترتيب ابن تيمية إياه من حيث قربه من "أهل السنّة" وبعده عنهم، وأسباب ذلك تاريخيًّا وسياقيًّا واجتماعيًّا، بل ركّز جُلُّ تلك الدراسات على بيان مواقفه العقائدية التي تهدف إلى بيان حقيّة مذهب أهل السنّة وبطلان المذاهب الأخرى. ومع عدم إغماض ما تحويه هذه الدراسات من فائدة، إلا أنها لا تربط ذلك بسياق عصر ابن تيمية أو تتطرق إلى الأوضاع التاريخية والسياسية فيه أو إلى العوامل السياسية والتاريخية التي جعلته يطلق فتاواه كما تتوخى دراسة الكتاب الذي بين أيدينا.

## دراسات قليلة ذات صلة بموضوع الكتاب

يشير السمهوري في مقدمة كتابه ابن تيمية التاريخي والمستعاد إلى أن من أهم الكتب وثيقة الصلة بموضوع بحثه كتاب جمال باروت حملات كسروان: في التاريخ السياسي لفتاوى ابن تيمية، الذي يقول إن له الفضل في تنبيهه إلى القراءة التاريخية، وإن له صلة شديدة بموضوع البحث وإن كان منصبًّا على هوية جبل كسروان فحسب ولم يتطرق إلى غيره، على عكس دراسة كتاب "ابن تيمية التاريخي والمستعاد"، التي تسعى لتوسيع أفق البحث لتشمل "المختلف" القريب والبعيد كليهما بجميع أطيافهما الفاعلة في عصره. وكذا كتاب في الإجابة عن سؤال: ما السلفية؟ لعزمي بشارة، ولا سيّما من حيث القراءة التاريخية وعدم إغفال الفروق بين السلفيات من وجهة نظر سوسيولوجية وسياسية، وإن كان كاتبه قد اهتم فيه بالسلفية في الزمن المعاصر تحديدًا.

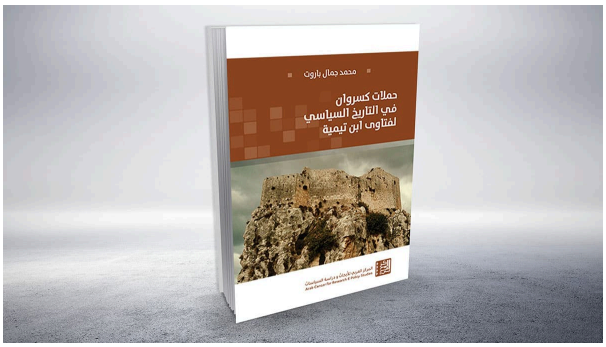


كما يشير السمهوري إلى دراسات اقتربت من موضوع دراسته ولم تُصبها، كدراسة عائض الدوسري موقف ابن تيمية من الآخر، التي غلبت عليها نزعة المديح والدفاع غير الموضوعية والانتقائية، فانتمت بوجهٍ ما إلى المتخيَّل، وكتاب محمد أبو زهرة ابن تيمية: حياته وعصره – آراؤه وفقهه، الذي ذكر فيه أحوال عصر ابن تيمية الاجتماعية والسياسية والعلمية لكنه لم يربط فتاواه ومواقفه بتواريخها إلا في وقعة جبل كسروان.

وأكثر مصادر كتاب "ابن تيمية التاريخي والمستعاد" كانت من كتاب ابن كثير. وذكر السمهوري من المصادر رسالة عبد الحكيم أجهر "التأسيس الفلسفي للتسامح في الإسلام، ابن تيمية نموذجًا"، التي وإن كانت ذات صلة بموضوع كتاب "ابن تيمية التاريخي والمستعاد" في نواحٍ معينة، إلا أن لمؤلفها فيها شطحات فكرية ترى لابن تيمية أفكارًا مأخوذة من محيي الدين ابن عربي، وأن ابن تيمية كان يقول بمشيئة الله الكونية التي اقتضت أن يكون في العباد كفار ومؤمنون أقرّ الله دروبهم بالقدر الأول وغيرهما، وبذلك جعلت هذه الرسالة من ابن تيمية مجبرًا. ثم يزداد إغراب مؤلف الرسالة حين يقرّ بحقيقة أن ابن تيمية كان متشددًا في التكفير.

ومن الدارسات الأجنبية المهمّة التي اعتمد عليها كتاب "ابن تيمية التاريخي والمستعاد" كتاب المستشرق الفرنسي هنري لاوست بعنوان نظريات ابن تيمية في السياسة والاجتماع ولا سيما الجزء الأوّل منه، إذ تناول بعمق البيئة التي نشأ فيها ابن تيمية، ووضع يده على كثير من الجوانب التاريخية والاجتماعية والسياقية في عصره.

كما اعتمد كتاب "ابن تيمية التاريخي والمستعاد" على دراسة دونالد ليتل Donald Little "اعتقالُ ابنِ تيميةَ ودلالتُه في التاريخ والتأريخ" (ترجمات، مركز نهوض للدراسات والبحوث، وفيها آراء مفيدة حول ظروف اعتقاله، وقيمة تاريخية تكمن في التفريق بين فئات المؤرخين الذين عاصروا نزاع ابن تيمية وخصومه، ودراسة أخرى لليتل نفسه بعنوان "هل كان في عقل ابن تيمية لوثة؟"Did Ibn Taymiyya Have a Screw Loose? ، التي وإن رآها السمهوري مفيدة فإنه يأخذ عليها أنها اكتفت بجانب التحليل النفسي لابن تيمية دون الجانب التاريخي والظروف والسياقات الاجتماعية؛ ما يشكل في نظره "فجوة علمية".

وهناك كتاب لمجموعة باحثين من جامعة أكسفورد بعنوان Ibn Taymiyya and his Times قال السمهوري إنه استفاد في كتابه "ابن تيمية التاريخي والمستعاد" من بحوث كل من كاتبِيه في وجه من الوجوه. وأخيرًا يذكر السمهوري مؤلفات الباحث الإنكليزي المختصّ بابن تيمية في الأكاديمية الغربية جون هوفر Jon Hoover وكتابه Ibn Taymiyyah ضمن سلسلة Makers of the Muslim World، الذي عرّج فيه على أهم المحطات التاريخية في حياة ابن تيمية، وما أَلَّف فيها، وفسّر محنة ابن تيمية في فتواه في الطلاق كما شرح بعض آرائه وفتاواه.